مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 07 العدد: 02 جوان (2023) ص365/ 377

الأنساق المتصارعة في رواية منا قيامة شتات الصحراء - قراءة ثقافية -

The Conflicting Patterns in the Novel of Menna,kiyamat chatat essahraa. Cultural Reading

دهليز أحمد*
جامعة تيسمسيلت (الجزائر)
مخبر الدراسات النّقدية والأدبية المعاصرة
ahmed.dehliz@univ-tissemsilt.dz

أ.د. خلف الله بن علي
جامعة تيسمسيلت (الجزائر)
benali.khalfallah@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/03/26
تاريخ القبول:
2023/05/17

الكلمات المفتاحية:
- ✓ النّقد الثقافي:
- ✓ الخطاب الرّوائي الجزائري:
- ✓ الأنساق المتصارعة:
- ✓ المركز:
- ✓ الهامش:

الملخص:

تروم هذه الدّراسة تعرية المضمر الثقافي في الخطاب الرّوائي الجزائري، وقد جرى التركيز على مقولات النّقد الثقافي بوصفه معولا معرفيا نركن إليه في خلخلة وتقويض العقل الإمبريالي الذي يجنح إلى تأييد الهيمنة على النّسق الهامشي وذلك بالتعريض إلى العلاقة المحتدمة بين الأنساق المتصارعة في رواية منّا للصدّيق حاج أحمد الزيواني.

Article info

Received
26/03/2023
Accepted
17/05/2023

Keywords:
- ✓ *Cultural Criticism:*
- ✓ *Algerian novelist discourse:*

Abstract :

This study aims to expose the cultural concept in the Algerian novelist's discourse, and the focus has been on the arguments of cultural criticism as a cognitive tool that we rely on in disturbing and undermining the imperialist mind that tends to support hegemony over the marginal format, by exposing the heated relationship between the conflicting systems in the novel from (Menna) by the El-Haj Ahmed Al-Zywani.

*المؤلف المرسل

	✓ *Conflicting modes:* ✓ *Centre:* ✓ *Margin:*

مقدمة:

يَتَشَكَّلُ النّص الأدبي من طائفة من المعطيات اللّغوية والجمالية تتضمن - في كثير من الأحيان- أبعادًا أيديولوجية، فهو منظومة إبداعية خاضعة للانسجام والاتساق، بنيانه اللّغة، وروحه مستمدّة من مشاعر المبدع وما يجيش بخواطره نفسيا وعاطفيا، يُعَبِّرُ عنه بمتن الكلام الذي يحمل واقعا معرفيا وفكريا وثقافيا وإيديولوجيا وسياسيا وعقائديا، يعكس نظرة المؤلف؛ كونه ينتمي إلى هذا العالم الحقيقي الذي نتج منه النّص، ولا نبالغ إذ قلنا أنّ أي نصٍ يمكنه أن ينوب عن التفكير، كما باستطاعته أن يقول ما سكت الكاتب عنه، وفي هذه الورقات البحثية سنحاول تسليط الضوء على واقع النّص الفكري والثّقافي والأيديولوجي وغيرها من الأنساق، ومن جهة مقابلة سنسعى إلى تطبيق ذلك على نصٍ أدبي أخذ في عصرنا حيزا واسعا من ساحة الإبداع الأدبي ونقصد فن الرواية، ولقد وقع اختيارنا على رواية جزائرية معاصرة وهي رواية **"منّا..قيامة شتات الصحراء"** للروائي الصدّيق حاج أحمد، من أجل كشف النقاب على تلك الأنساق المحتجبة المتصارعة بين السطور، متوكئين في ذلك على مقولات النّقد الثّقافي.

وكما هو معروف يحظى النّقد الثّقافي باهتمام كبير لدى النّقاد لكونه من أحدث ما أفرزته الدراسات النّقدية الما بعد حداثية التي عرفها العالم الغربي، بعدما استنفذت المناهج الحداثية كل ما في جعبتها لإيجاد الآليات الإجرائية الكفيلة باستنطاق النصوص ومقاربتها، بغية فهمها واستيعابها واستكناه أغوارها، ومعرفة ما تخفيه عوالمها، وقد غالت هذه المناهج في الانغلاق على لغة النّص، فاجتهد منظرو النّقد للبحث عن بديل يعيد للسياق مكانته، فوجدوا في النّقد الثّقافي ضالتهم، حيث يعمل هذا الأخير على البحث عن المضمر الثّقافي داخل النّص الأدبي، وقد برز إلى الوجود وبشكل لافت للانتباه إثر الدعوة إلى الاهتداء إلى خطاب نقدي يتماشى والفكر الإنساني المواكب لمعطيات العصر، وما يميزه من انفجار تكنولوجي وظاهرة المثاقفة وغيرها.

ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق تطوير مقولات النّقد الأدبي السابقة التي هي بحاجة دائمة ومستمرة إلى التّجديد والتطوير لمسايرة روح العصر، حتى تتناسب طرديا مع تغيّر نمط الحياة البشرية، ولقد جاء النّقد الثّقافي بديلا ليعنى بالأنساق الثّقافية المستترة وراء البناء اللّغوي، ودراستها فهما وتعليلا ضمن سياقها الثّقافي والاجتماعي والأيديولوجي والسياسي والتاريخي والمؤسساتي.

إنّ النّقد الثّقافي لا يقصد به نقد الثّقافة، وإنّما يسوقنا إلى قراءة الثّقافة بحثا وتنقيبا عن أنماطها المضمرة لأجل تعريتها، كونها مندسة تحت رداء الجمالي في النّص الأدبي، فالنّقد الثّقافي يتوكأ على آليات إجرائية تخوله دراسة الخطابات الأدبية في إطار ثقافي، فالانتقال والتحرك داخل النصوص يتماشى حتما والأبعاد الثّقافية ومكوناتها، لأنّ الثّقافة تنشأ من تجربة النّاس وإبداعهم، والثّقافة مفهوم هلامي مائع صعب تحديده وتعريفه باعتباره فضاءً مفتوحًا على ما هو فني جمالي وفكري وأخلاقي، حيث تشكلت من ميراث الأمم وما خلف السلف للخلف، وما اكتمل بفعل التّلاقح مع الحضارات المجاورة، فالثّقافة إذًا هوية الشعوب ومؤسس وحدتها.

ويكمن دور النّقد الثّقافي في الكشف عن مختلف الأبعاد السالف ذكرها لنص ما، وتبيان ما مدى تفاعله مع الثّقافة، فهو يعدّ همزة وصل بين البنية الخطابية والوضعية الاجتماعية والفكرية والثّقافية، يسعى إلى فضح ألاعيب الثّقافة المتسربة عبر

أنساق النّص المتجمّلة بزينة الجمالي والبلاغي كتمويه لها، وهذه الأنساق المندسة تعتبر مجال اشتغال النّاقد الثّقافي الذي يسعى إلى إماطة اللّثام عنها، وفضح وجهها الحقيقي المتواري بين سطور الإبداع الأدبي.

والمقاربة النّقدية الثّقافية ترتكز على مجموعة من الإجراءات أو المقولات، لعل أهمها قضية المركز والهامش، الشمال والجنوب، الأبيض والأسود، الأنا والآخر، الغرب والشرق، الأنوثة والذكورة، أو بعبارة أخرى جامعة وشاملة مفرزات ما بعد الكولونيالية وغيرها، والتي أنتجتها الحضارة المعاصرة.

ولا يمكن للنّص الرّوائي العالمي عموما والجزائري خصوصا أن يتملّص من التعرض لمثل هذه الظواهر الإنسانية، ورواية "منَّا" لصاحبها الصدّيق حاج أحمد مثالا على احتوائها للقضايا الآنف ذكرها، من باب أنّ المثقف الجزائري إنسان وليد بيئته وعلاقته الوطيدة بالمحيط الجغرافي والاجتماعي والفكري والديني والعقائدي، الذي يعيش فيه ويحيط به، وهي الأمور التي تتدخل في تكوين رصيده، فيتّم إسقاط ذلك الإرث في صورة نصوص تعبر عن واقعه وتجاربه في إيقاع تخييلي جمالي، يضفي على النّص الأدبيّ أبعادا مضافة وقبل أن نتطرق بالتحليل والمدارسة لهذا النّص الرّوائي، ارتأينا أن نعرج باقتضاب على مفاهيم هذه المقولات الثّقافية نظريا ليسهل علينا تطبيقها لاحقا على المتن الرّوائي الذي اخترناه.

1- جدلية المركزوالهامش في النقد الثقافي:

1-1- المركزبمفهوم القوة والهامش بمفهوم الإقصاء:

يعد المركز والهامش من الثنائيات الضدّية المتلازمة، يستعان بهما بغية تكريس الأول وإلغاء الثاني، فالمركز في المنظور الثّقافي عموما هو مصدر الثبات، مبعث السيطرة والهيمنة والاستحواذ، الريادة والتفوق، أما الهامش فيعبر عنه بالحواشي، والمحيط، والتابع والمتحرك في فلك سلطة المركز، فلقد عرف هذان اللّفظان عدّة مفاهيم وتحديدات اصطلاحية متباينة، حيث يصعب رصد مدلولهما بدقّة بالنّظر إلى اتساع مجالهما وارتحالهما معا في بنيات متنوعة طبقية واقتصادية، وسياسية، واجتماعية وثقافية وأدبية وغيرها، وعلى هذا الأساس فهما يَتَلَبَّسَانِ بأفكار الحقل الذي ينتميان إليه.

أ) - المركزوالهامش من منظور العلوم الإنسانية:

إنّ منشأ التفاوت في الوضعية الاجتماعية يعدّ عاملا هاما في تجسيد فكرتي المركز والهامش، فيتضح مفهومهما ضمنيا، وتتأكد علاقتهما الاعتباطية بين معناهما ولفظهما من خلال الملاحظة العينية والأحكام القيمية التي أثبتت ذلك التباين بين أفراد المجتمع وفق مقاليد الحكم، والسلطة، والمنصب، والمكاسب المالية والمادية والامتيازات، فكلما حظيت فئة بقدرٍ هامٍ مما أشرنا إليه سلفا تأصلت لديهم سلطة التمركز مع احتلال مكانة عليا اجتماعيا، أما بالنسبة للأفراد الذين تقل حظوظهم في هذه الجوانب فيبتعدون عن النواة ملامسين المحيط أي الهامش؛ وبذلك يحتلون مراتب اجتماعية دنيا(كيغان، 2014، ص.148)، وهذا ما يحقق رؤية العلامة ابن خلدون إذ يقول **"المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب"**(العصيمي، 2013، ص.94)، نفهم من هذه الفكرة الخلدونية أنّ المجتمع تطغى فيه جدلية الصراع والتلازم بين طبقتين اجتماعيتين الغالب والمغلوب؛ بمعنى المركز والهامش.

إذ نجد إحداهما يسعى أفرادها لبسط الهيمنة والبروز بثوب التفوق والتمركز كقوة سيادية نافذة في المجتمع، متمسكة بمبدأ الثبات والاستقرار من حيث الزعامة والغلبة في حين الطبقة الدنيا المغلوبة فتمثل الهامش المائز بالحركية والدينامية باستمرار، كونها منقادة بأوامر ونواهي السيّد، خاضعة لحكم المتسلط الغالب، نتيجة مغالطة الفئة الأولى للطائفة الثانية، فينشأ بذلك قناعة وعقد اتفاق افتراضي يعطي أحقية الاعتقاد بالاستعلاء بالنسبة للغالب والقبول بالاستسلام والاتباع بالنسبة للمغلوب، وعلى هذا الأساس نجد المستضعف دوما متأثرا بالقوي فنراه خاضعا مستسلما مطيعا له لا شعوريا، وتتوارث الأجيال اللاحقة هذه الميزة، كما يقال العامة على دين الملك، وهذه الثنائية سرعان ما ترتحل إلى الفن والكتابة

والإبداع، فيجسّد المبدعون في مؤلفاتهم ذلك الصراع بين الصنفين لأنّ الأدب مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية فهو صورة ووثيقة فكرية **"ويعدّ المبدع في النص الأدبي فاعلا جماعيا يعبّرعن وعي طبقة اجتماعية ينتمي إليها، وهي تتصارع مع طبقة اجتماعية أخرى لها تصوراتها الخاصة للعالم"**(حمداوي، ص.233)، بمعنى أنّ الحياة الاجتماعية مرجع إلهام لأي مبدع يتوسل بالنصوص للتعبير عن وعي الجماعة خاصته، فهو بمثابة ترجمان آمال أفراد البيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها، كما يعدّ لسان حالهم أمام خصومهم الذين لا يتقاسمون معهم الرؤى نفسها، فيستغل أفكاره في محاكاة نظرتهم بأسلوب فني وجمالي يصور الواقع بكل تجلياته المتعددّة، وللأعمال الإبداعية دور في الحكم على مظاهر الحياة الاجتماعية.

مثلما احتل قطبي المركز والهامش حيزا هاما في إبراز الفوارق الطبقية الاجتماعية نجده كذلك يؤطر حياة الأمم اقتصاديا، ففي عصرنا أصبح الاقتصاد عاملا فارقا بين الدول من حيث المركز والهامش، وكما هو معلوم فإنّ تقدم أي دولة ورقيها في زمننا هذا يقاس بمدى تطور اقتصادها لأنّ **"مفتاح النجاح الاقتصادي والقوة الجيوسياسية لدولة ما يكمن في الممارسة التجارية التي تمارسها تلك الدولة والتي تؤهلها لفرض سيطرتها على العالم"**(برونيه وجيشار، 2016، ص.59)، بهذا المعنى نلمس أنّ هناك صراعا دوليا اقتصاديا تحاول من خلاله كل دولة أو تكتل اقتصادي بسط هيمنة التصنيع والإنتاج، فعلى سبيل المثال **"الولايات المتحدة لم تعد مركز الثقل والقوة الاقتصادية الأولى كما كانت، ولاسيما بعد ظهور اليابان وألمانيا كقوتين اقتصاديتين عظيمتين، لهما دورهما المؤثروالفعال في النظام الاقتصادي العالمي أكثرمما تستطيع فعله الولايات المتحدة بغير النفوذ السياسي والعسكري"**(أحمد، 1993، ص.76)، مما يؤكد حضور الصراع الأزلي في المجال الاقتصادي بين المركز والهامش، حيث يقوى المركز بعاملي التأثير والفعالية، وهما المحددان للفارق في الميزان التجاري من خلال اكتساح السوق منتوجا وجودة وتصديرا وعرضا، الأمر الذي يجعل الهامش يناطح المركز لأجل إزاحته واحتلال محله.

ولقد انعكس الحوار الاقتصادي على الحياة الإنسانية برمتها، ولو انتقينا مثلا مجال الأدب فنجده قد تأثر بميزان الغنى والفقر، فمن المبدعين من ألف في حياة أصحاب المال والأعمال وآخرين نظروا إلى أحوال الكادحين والعمال، تضاربت الأفكار بين أنصار البرجوازية والطبقة الكادحة، كما حدث بين الكلاسيكية والرومانسية، بين أدب الإبداع وأدب التكسب والأغراض، فسلطان المال يعمل على توجيه الخطاب الأدبي ورصد معناه.

ولا نذهب بعيدا عن هذين المجالين دون أن نتطرق إلى مجال أكبر يحكمهما ويحويهما وهو مجال الساسة، ولقد عرف معجم روبير عام 1962 السياسة على أنّها **"فنّ حكم المجتمعات الإنسانية"**(دوغرجيه، د.ت، ص.07)، اجتماعيا واقتصاديا إضافة إلى ارتباطها منذ القدم بحكم الملوك والسلاطين، أما في وقتنا الراهن فهي ذات صلة بالدولة بالنظر إلى أفول العديد من الأنظمة الملكية واختفاء سلطتها المتوارثة في التجمعات الإنسانية الكبرى، وسواء تعلق الأمر بالملك أو الدولة، فإنّ كلاهما يسعى كلاهما إلى فرض سلطة التنظيم داخل الامتداد الجغرافي السيادي، لأجل التحكم والسيطرة على الأوضاع داخل كيان المملكة أو الدولة، وعندئذ يحدث اتفاق ضمني داخل البنيان الاجتماعي بين الحاكمين والمحكومين، والزعماء والأعضاء، والقادة وعامة الناس وهلم وجر من المرادفات الواردة في المعجم السياسي.

وتتسم حياة الدول عادة بالصراع السياسي النّابع من الطبيعة البشرية في الرغبة والطموح للوصول إلى سدة الحكم أو المشاركة فيه، لأجل ممارسة فنّ الحكم حسب مآرب وأغراض لا يعلمها إلا المتطلع للظفر بمكانة هامة في المجتمع، محاولا النزوح نحو المركزية السلطوية، التي لا تظفر بها سوى أقلية هي من تقوم بسن القوانين والقرارات والأوامر والنواهي، أما فئة الرعية الخاضعة للسلطة فتأمل أن تتحقق مصالحها ومنافعها وامتيازاتها التي تراها مشروعة، وهنا تتصادم مصالح السلطة والرعية من خلال الشد والجذب بين المساعي والمطالب، والتأثير والتفاعل، والقبول والمعارضة، فينشأ خطابا هامشا موازيا قد تنتقل به العامة إلى التعبير عنه عبر الكتابة أو الفن، ثم ما يلبث أن يغزو حقل الأدب.

ب) - المركزوالهامش في الخطاب الأدبي:

ارتبط الأدب بالحياة الإنسانية أيما ارتباط، وتطوّر حقله وتنوّعت أجناسه بعدّة متغيّرات وظروف، بكل أصنافها اجتماعية كانت أو الفكرية أو السياسية أو الأيديولوجية، يعبّر به عن قضايا النّاس وانشغالاتهم اليومية، فهو يصوّر كلّ ما يجيش في وجدان كاتبه ويعكسه في شكل إنتاج لغوي جمالي تخييلي، ورؤية فنية قد تتضمن رسالة إنسانية، يجسّده الأديب بوصفه وسيطا اجتماعيا يعيش فى دينامية وصراع بين واقع كائن وآخر ممكن، بين حتمية الرضا وحرية الاختيار، وبالتالي يصبح الأدب وسيلة لتحريك الوعي الفكري وتنشيطه ضمن حاضر قد يُفْرَضْ أحيانا، وتطلع إلى مستقبل مأمول، ولعلّ الفوارق الاجتماعية والعلاقات الأفقية (أفراد/أفراد) والعمودية (أفراد/مؤسسة رسمية) هي من يتدخّل في تثمين الأعمال الأدبية وتصنيف المبدعين ومنجزاتهم.

وبالتالي فنسق ثقافة المركز **"لا يعترف إلاّ بما هو متن، ويخضع لتصنيفات المؤسسة الرسمية التي تتبنى شكلا من الثقافة وتحدّد قيمه الجمالية، وكل ما يخرج عن هذا الشكل تعتبره هامشا، وأقل قمية"**(هويدا، 2015، ص.114)، نستشف من هذا الكلام أنّه يوجد نوعان من الأدب، أدب مركزي وأدب هامشي؛ فكلاهما يلامس القضايا التي تتناول موضوعات ذات الطابع الإنساني، فالسلطة تعطي للنص الأدبي شرعيته ومصداقيته ومركزيته وفق معايرها وبناء على توافقه مع مبادئها، وتجعل منه هامشيا ودونيا في حال مناهضته لكل ما يخالف أو يتعارض مع تصنيفها، كونه يتمظهر في شكل مقولات توحي بالامتعاض واللا قبول اتجاه السلطة، التي تنظر إلى هذا النوع من الأدب بالسلبية لأنّه لا يخدم تطلعات عامة النّاس فتضعه المؤسسة في خانة التيمات المحظورة لاعتقادها أنّه منزاح عن الضوابط المطلوبة، وتعتبره أو تعدّه تعابير مواضيعها مرفوضة وممنوعة، وخطوط حمراء لا يجب تجاوزها.

فينصب الأديب المهمش نفسه وأدبه كمحرر من جهة، ومنعتق من جهة مقابلة عن الخطاب السلطوي وقيوده، فيعمل على محاولة خلخلة كل متمركز وثابت، ينبش حول المسكوت عنه لفضحه، وذلك بالنظر إلى الموضوعات التي يتناولها حسبهم؛ لأجل لفت الانتباه وتنوير العقول أو تثويرها، كمناصرة القضايا الإنسانية العادلة، وقضايا الأقليات أو الإثنيات والجنوسة، والعرق، والكولونيالية وغيرها من القضايا التي تعد إما طابوهات أو مصدر تحريض على تغيير الواقع، فالأدباء الذين يكتبون عن أنين الشعوب واصفين صوتها بالمقموع، يعدّون في نظر السلطة أصحاب ضجة فكرية يحركون المجتمع ضد مصالحها، وشرعيتها، فالقائمون عليها **"يريدون من الناس أن يتحدثوا عن الجمال والكمال وعن الحق والحقيقة وعن غير ذلك من الأفكار المطلقة التي توجه أذهان الناس نحو السماء، فتنسيهم مشكلات الأرض التي يعيشون عليها"**(الوردي، 1994، ص.283)، وهو ما تصبو إليه المركزية السلطوية من خلال ذلك المبدع الذي ينتهج الكتابة المستقيمة، المضبوط الحدود التي تتماشى والرؤى المتبناة من قبلها، فيكون أدبه خادما لتطلعاتها ومسايرا لمبادئها، غير مقلق لمركزيتها، فإنّه يلقى الثناء والحمد والتقدير، بيد أنّ الأديب الذي يكتب حول ما يؤرق الرعية إزاء السلطة، تعدّ كتابته خارجة عن الأطر والمبادئ المسطرة، فهو متمرد ومحفز على الثورة، غير مقبول مؤسساتيا، مصيره الإقصاء والتهميش، لا يذكر في كتاب ولا يأتي اسمه في خطاب، ويحكم على أدبه بالحظر والعزل.

2- جدلية الأنا والآخر في النّقد الثّقافي:

إنّ قضية المركز والهامش تحيلنا حتما إلى وجود صراع محتدم بين أنساق متعارضة يصنعه طرفا هذه المعادلة وهما **الأنا والآخر**، فإذا كان الأنا هو المركز، فيا ترى من هو الآخر؟ **"الأخر هو المختلف في الجنس أو الانتماء الديني أو الفكري أو العرقي"**(حمود، 2013، ص.17)، أو الأيديولوجي أو السياسي فنتيجة الاختلاف في عيّنة من هذه العيّنات يؤدّي بالضرورة إلى الصدام لإثبات الذات هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الانفتاح والاحتكاك بين طرف من هذين الطرفين يولد بطبيعة الحال المواجهة التي تصل إلى حد سوء التفاهم إذا ما تقدم أحدهما وأكد تمركزه، فلولا الآخر لما كان السؤال حول الهوية، فالأنا في

وجود الغير يفتح المجال للصراع لأجل إثبات الكينونة وتحقيق الوعي بالذات، وهذا الصراع أو هذه المنافسة تحيلنا طبعا لفكرة منتصر ومنهزم، متمركز وهامشي.

الأنا تسعى دوما للبحث على كنه الآخر، فإذا ما قابلته يحدث تعارف، فإما تآلف وانسجام فتكون المنفعة المتبادلة، وإما اختلاف وتنافر، فعندها تتحرك مشاعر الرغبة في التملّك والسيطرة وتبيان التفوق على الغير لتحقيق مقاصدها، كل هذا لأجل أن تجعل من نفسها مركزا ثابتا لكل شيء تعتبره - أي الأنا - هامشيا، فعلائقية الأنا مع سواها (المغاير) يفسر وجودها، **"فالغير هو ما يستبعدني بكونه ذاته وهو ما أستبعده بكوني ذاتي والشعورات يتوجه بعضها إلى بعض مباشرة في تشابك متبادل لوجودها""**(سارتر، 1966، ص. 402)، تأسيسا على هذه المقولة يتضح لنا أنّ إثبات الوجود مرتبط بالآخر، يتحدد بواسطة الشعور والتفكير، فكل ذات تعدّ غير وكل غير هي ذات بالنسبة لها، وهو بهذا الشكل تذاوت في عالمي الموجود واللاوجود، فالذات/ الأنا لا يكون موجودا إلا في وجود المخالف وكأنها لعبة انعكاس بينهما قاعدتها عبارة عن أسئلة فلسفية مجردة تدور حول هل **أنا هو أنا ومن أنا؟ و من أكون؟** فالاستبعاد، والنبذ والتأمل، والشد والجذب بين الطرفين يتيح ما لا نهاية من التفسيرات التي تطرأ من خلال معرفة الأنا لنفسه عن طريق مرآة الآخر.

فالبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد والتفاعل الحاصل بينه وبين الآخرين هو ما يمكنه من معرفة نفسه وإدراك اختلافه عنهم، هذا الغير الذي يصادفنا وينتقد ذواتنا هو الذي يحفزنا على التفكير في أنفسنا، فنقائصه وعيوبنا ومحاسنه، هي من تدفع بنا إلى إصلاح وتقويم أحوالنا، فالحالة الشعورية بالعزلة والتهميش تبدي للذوات كل شيء آخر غريبا معاديا، فالحاجة إلى الغير ضرورية لوجود الوعي بالذات؛ فعندما أكون سلبيا متناقضا مع غيري أتعرف على أناي، حيث لا يتأتى ذلك إلا عن طريق الاتصال به، وهنا يتأصل وعي الذات وذات الغير في نطاق صراع، ومخاطرة تتجه نحو محور الاهتمام إلى تشكيل بنية الأنا عبر نقيضي الذي هو الآخر، فالأديب عندما يكتب عن مختلف القضايا فهو بالتالي يعبّر عن ذاته/أناه مقابل ما فسد في المجتمع (سياسيا/إقتصاديا/ثقافيا) وهو بالنسبة له الآخر، فلا نجد نصا أدبيا يهتّم بقضايا المجتمع وآماله وآلامه إلاّ ويكون فيه صراع محتدم بين الذات/ الأنا والآخر/ الغير.

3- جدلية شمال جنوب في المقاربة الثقافية:

لاشك أنّ الحضارة الأوروبية منذ عصر النهضة وهي تسعى إلى بسط هيمنتها على العالم الثالث، وقد اسْتَعَرَتْ فكرة السيطرة منذ قرنين من الزمن، فحاول الغرب (الشمال) **"إدخال أو فرض الحضارة الغربية على العالم الإسلامي والعربي بل العالم الثالث لأمر أساسي جوهري هو فرض الهيمنة والسيادة"**(الشهرستاني، 1994، ص.121)، ولقد انتقلت النزعة القائمة بين الأنا والأخر إلى الأنا الجمعي والآخرين، فانتقل الأمر إلى صراع الحضارات لأجل فرض السيطرة والهيمنة، وذلك من وجهتين أولهما اقتصادية وثانيها للمفاخرة والشعور بالذات الفارقة المتسلطة، إنّها الطبيعة البشرية التي تحقق كيانها ووجودها من خلال الصراعات والسيطرة والتفوق فتولدت إثر ذلك ثنائية جديدة في العالم - إضافة إلى الثنائيات السالف ذكرها - هي ثنائية شمال/جنوب؛ وهي ظاهرة ثقافية يحاول الغرب ترسيخها في أذهان النّاس شمالا وجنوبا وبشتى الوسائل خاصة الفنيّة والأدبية منها (أفلام/مسرحيات/روايات)، فيصوّر من خلالها فوقية الغرب (الشمال) وتعاليه، وهامشية وهمجية الجنوب ودونيته.

ولقد اعتبر الشمال نفسه مرجعية فكرية تستقي منه دول الجنوب المفاهيم التي توصل إليها نتيجة السبق المعرفي الذي عرفه قبل غيره، ونخص بالذكر العرب، فثقافات الجنوب **"أصبحت في مرحلة معينة تابعة للثقافة الأوروبية، والعلاقة بين النسبية الثقافية والقيمة الأدبية، ومدى قابلية الآداب غير الأوروبية للقراءة إنطلاقا من تأثير تلك الأوروبية"**(سينوبولي، 2007، ص.18)، فَتَبَنِي الآداب والفنون الأوروبية (الشمال) كمعطى ثقافي من قبل الثقافات غير الأوروبية، أكسبته شرعيةَ ووصايةَ المُعلم على المتعلّم، ومنحته وسم تأثير السابق على المتأثر اللاحق، ومكّنته من شيوع فكر الغالب ومقبولبته في خطابات المغلوب، فتغلغل هذه الآداب والفنون خارج ديارها، وتأثيرها في غير بيئتها التي أنتجتها، وتأصلها كدرس قيّم جدير بالاهتمام،

منحت الشمال أحقية زعامة النهضة التي لامست جل مناحي الحياة الإنسانية، العلمية والسياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والصناعية، والثقافية، والأدبية، والاعتراف الطوعي بريادته وتفوقه، مما يعكس أنّ الآخر (العرب) ناقص ومتخلف وهو بحاجة إلى قراءة أدبه من خلال أدب غيره (الغرب)، والملاحظ لجدلية شمال/جنوب يلفي أنّها واحدة من عدد لا متناهٍ من الثنائيات المتصارعة حول الاستقرار في المركز وإقصاء الباقي إلى الهامش، فهي بمثابة أفيون تحاول من خلاله القوى المركزية المسيطرة بث مخدرها في مخيال الهامشية الضعيفة، لكي تتقبلها كقدر محتوم، وتم تمرير تلك الأفكار بسبب عنصر المركزية.

4- مقولة الكولونيالية وما بعدها في النّقد الثّقافي:

إنّ تغيّر الظروف لدى الغرب منذ بداية عصر النهضة دفعت طموحه إلى الرغبة

في بسط المركزية الأوروبية على حساب الدول المستضعفة؛ لأغراض توسعية عن طريق القوة العسكرية ومبررات واهية **"فكان لا بدّ في النهاية من أن تكون هذه المبررات مقبولة وإنسانية مثل الزعم بضرورة تحضير شعوب الشرق المتخلفة وتطويرها وإنقاذها من البؤس والشقاء وغير ذلك"**(العودات، 2014، ص.126)، لحمايتها وتعمير بلدانها، ولعل نعمة التطوّر العلمي والصناعي الذي عرفته أوروبا عصرئذ، كان دافعا لساسة الغرب للبحث عن مجالات حيوية يفتقدونها في بلدانهم؛ فيما يخص المواد المعدنية الخام، والتي كانت غنية بها دول الجنوب، فتولدت لديهم فكرة الاستعمار أو ما يصطلح عليه نقاد الثّقافة بالكولونيالية وما خلفته بعد ذلك من آثار فكرية على العالم الثالث.

لقد لعبت المستوطنات الكولونيالية دورا هاما في توسع المجتمع الأوروبي ونشر ثقافته في المناطق المسيطر عليها **"إنّ شطرا كبيرا من حياة الشّعب المستعمَر قد تشكل عن طريق الكولونيالية"** (أسكروفت وجريفيث وتيفين، 2010، ص.56)، فنشأ بفعل المبررات الاستهامية نوعا من التطبيع في العلاقات الثّقافية، وبجهد جهيد حوّل المستعمِر هذه العلاقة إلى علاقة وّد وتأثّر، لأنّ صاحب الحاجة مرغم دوما بالانقياد والاقتداء بمن هو أفضل منه في كل شيء، فهذا حال تلك الدول التي انبهرت بما وصل إليه الغرب من تطور وازدهار، ودونما أي شعور وقعت في فخ الاستعباد، منقادة للغرب عن قناعة بأنّ مهمته تكمن في تمدينها وتنميتها، غير أنّ الواقع عكس ذلك؛ لأنّ نوايا الآخر كان هدفها النهب والاستحواذ على ثروات ومقومات شعوب هذه الدول التي رهنت نفسها لحلم مواكبة ومسايرة الغازي، لانبهارها بما وصل إليه من رقي وازدهار.

يقول فرانز فانون **"إنّ الترسيم الجغرافي سيتيح لنا وضع الخطوط التي سيعاد على أساسها تنظيم مجتمع تحرر من الاستعمار"**(غبسون، 2013، ص.263)، فلعله يقصد بذلك أنّ حياة الشعوب بعد الكولونيالية ستبقى رهينة لأفكار المستعمِر، التي رسخها في المخيال الجمعي للدول المستعمَرة، كأن يتم محاكاة أيديولوجيات المركز لتثبيتها ضمن الهوية الواحد (الأنا والنحن) في سياق ترك آثار التخلف والصراعات الداخلية، سياسية، فكرية، دينية عقائدية تغذي التفرقة بين ساكنة الشمال والجنوب، بين الرجل الأبيض والأزرق، بين الحضري والريفي، وفق مقولة فرّق تسد، وهذه ظواهر تسطر الخطاب الأدبي في دول العالم المستعمَر (الثالث) تسطيرا، وتؤسّس للتفرقة والتخلّف والتبعية للشمال في كلّ مناحي الحياة، خاصة الفكرية والثّقافية والفنيّة، والأدب **"يوفر لنا الطرق الأكثر أهمية التي تعكس هذا التأثير المستتر، وقد وظّفه الجانب المستعمِر، توظيفا ماهرًا وماكرًا في لغته وفي ثقافته"**(سلمان، 2004، ص.ص.88-89)، وصوّر للآخر أنّه المتحضّر المنقذ الرحيم وقد صدّقه، إلاّ أنّ الحقيقة أبعد من ذلك بمراحل.

5- تطبيق مقولات النّقد الثّقافي على رواية منّا قيامة شتات الصحراء:

تعدّ رواية منّا قيامة شتات الصحراء للرّوائي الصدّيق حاج أحمد، الصادرة سنة 2021 عن دار الدواية للنشر والتوزيع والطبع الجزائر؛ والتي تروي مجموعة من الأحداث المتّصلة بسكان الساحل الصحراوي الإفريقي؛ تحديدا التوارق والأزواد، وهي متن روائي ينبش في التّاريخ بوصفه ذاكرة الشعوب، ويتطلع إلى مستقبل هذه الفئة، تروم تعرية المسكوت عنه والمهمل من

الكتابات الأدبية والخطابات السّياسية التي تخص البيئة الصحراوية وساكنتها؛ لتؤسس معالم كتابة جديدة ومتميّزة متجاوزة الكتابة المعهود عليها والتي تتناول تيمة الصحراء من جانب سياحي بوصفها مكانا للتمتّع والاستجمام بواحاتها الساحرة وكثبان رمالها الذّهبية وعادات وتقاليد قاطنيها، أكثر من كونها فضاءً يعج بالتجاذبات الجيوسياسية والظروف الطبيعية القاسية، ولعلّ رواية منّا تسعى في مقام آخر إلى البون بالرغبة الجامحة لهذه الشريحة المجتمعية في الحياة والوقوف في وجه الموت بدافع ارتباطها بمكانية التّراب وتعلّقها بأحلام المستقبل والتي قد يبقى تحقيقها مجرّد أوهام وسراب.

5-1- تمظهر تيمة شمال/جنوب في رواية منّا:

فيما يخص قضية (شمال/جنوب) من حيث المركز والهامش الذي نظّر له النّقد الثّقافي نجد الكاتب من خلال تقنية سردية يصف المجاعة التي حلت بمالي جراء الجفاف، مما دفع بساكنة ذلك البلد خاصة التوارق إلى الفرار إلى جنوب الجزائر، والذي اعتبره طوق نجاة نظرا لوجود مراكز الإغاثة بالنقاط الحدودية الجزائرية"(حاج أحمد، 2021، ص.8)، وهنا تتجلى وبشكل بَيِّنَ ثنائية شمال/جنوب، فالجنوب رمز للموت والتخلف والفقر والغبن والمعاناة والجدب، فيما يُظْهِرُ النّص الروائي الشمال (الجنوب الجزائري) منطقة النماء والخير والنجدة والخصب، رغم أنّه جنوب، وبالنسبة للجزائريين ربما نظروا إليه مثلما ينظر إلى الجنوب كمركز للتصحّر والجفاف ونهاية الحياة، وهو إسقاط لما عبّر عنه رفاعة الطهطاوي في أحد أهم كتبه التي تحدّث فيها عن تقسيمه للبشر، أين صنّفهم في ثلاث مراتب "**.. بلاد المتوحشين الذين هم دائما كالبهائم السارحة، لا يعرفون الحلال من الحرام، ولا يقرءون، ولا يكتبون، ولا يعرفون شيئًا عن الأمور المسهلة للمعاش ..عرب البادية، فإن عندهم نوعا من الاجتماع الإنساني، والاستئناس، والائتلاف، معرفتهم الحلال من الحرام، والقراءة والكتابة وغيرها، وأمور الدين، ونحو ذلك غير أنهم أيضا لم تكمل عندهم درجة الترقي في أمور المعاش، والعمران، والصنائع البشرية، والعلوم العقلية والنقلية..البلاد الإفرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية، والطبيعة، وما وراء الطبيعة**"(الطهطاوي، 2012، ص.14)، وهذه شهادة رجل محسوب على الجهة الجنوبية بالنسبة للإفرنج، عايش ما في الجنوب وتعايش مع الإنسان الغربي المستقر جعرافيا في الشمال وكنسق مركزي في المخيال، فنجده يشيد بالتقدم الذي وصل إليه ساكنة الشمال في شتى المجالات مقارنة بتأخر البلدان الواقعة في الجنوب والتي وصف بعضها بالتخلف والهمجية والبعض الآخر بنقص مستوى التطور والتنمية.

لقد تأصلت مسلّمة الشمال بأنّه عنوان التمدّن والتحضّر والتقدّم، في حين الجنوب يحيل دوما إلى البداوة والتخلّف، ففي "**ثقافة أهل الصحراء الكبرى: الأغنام والأبقار، أقل صبرا ومقاومة من الإبل والماعز**"(حاج أحمد، 2021، ص.18)، مما يعكس على أنّ سكان الشمال ينعمون بالرفاهية والرخاء في حين أهل الصحراء يصارعون دومًا قساوة الطبيعة بشقاء وعناء وبوسائل تقليدية، كالإقامة في الخيام والتنقل على الجمال، فحالهم حال حيواناتهم من حيث الصبر ومقاومة الظروف المناخية كالحرارة الشديدة والتصحّر والجدب.

5-2- ثنائية التقدّم والتخلّف:

كما هو مترسّخ في مخيال العامة أنّ الشمال رمز الازدهار والتطوّر مقارنة بالجنوب اجتماعيًا واقتصاديًا وتنمويًا، نقيض الجنوب الذي يفتقر في كثير من الأحيان إلى أدنى شروط الحياة، يقول السّارد "**ما تبقى من الحمير بصحاري تيلمسي، أضحى عملة نادرة في بورصة هاجس الرحيا، صحيح أنّ الإبل نجا بعضها، لكن الأطفال وبعض النساء والمسنّين، لا يقوون على صعودها، ركوبها رجراج، وطرق القوافل لا تخلو من معابر الوديان، وما يحدثه غطس نعال البعير في الرمال من اهتزاز، خلال نزول منحدراتها وصعود مرتفعاتها**"(حاج أحمد، 2021، ص.24)، ففي الجنوب أصبح الحمار عملة نادرة في حين أنّ ساكنة الشمال نسوا حتى صورته، فالفوارق شاسعة بين الجهتين، وحياة أهل الجنوب ينظر من خلالها إلى الحمار أنّه وسيلة نقل نفعية، في المقابل أنّ أهل الشمال وسائل نقلهم متطوّرة قد يعتقد الجنوبي أنّها من كوكب آخر، وهذا حتما يكشف عن

مظاهر تخلف التنمية عن ركب التقدم الذي يحظى به قاطنو الشمال، فلا طرق معبدة ولا وسائل سفر مريحة وكأنّهم في عصور ما قبل الثورة الصناعية، فقد تحوّل ذلك إلى مظهر من مظاهر الثّقافة والاختلاف والتفريق.

3-5- ثنائية الجدب والنّماء:

ويمكن أن نستدّل على ثنائية الجذب والنّماء كمعادل لثنائية الشمال والجنوب، مثلما أورده الرّاوي بخصوص زحف البعض نحو تنقارة والبعض الآخر كما أشار إليه " **تجمّع هنا، عساه يجد شاحنة لتجارتمور توات تقلّه إلى طوق النجاة لا يهم إلى أين؟ المهم الهروب شمالا من هذه المحرقة؛ كما قال خالي بتّو**"(حاج أحمد، 2021، ص.32)، ففي اعتقاد الأهالي المضطرين إلى الفرار من الجفاف والجدب، يرون جنوبهم جهنّم لا ترحم ولا تبقي ولا تذر، لا تترك إنسانا ولا حيوانا ولا نباتا، وأنّ الشمال منطقة نماء وجنّة نعيم وخلاص، لما يتوفر عليه من مقومات العيش الكريم اجتماعيًا، صحيًا،ثقافيًا، اقتصاديًا وتجاريًا.

6- تجليات المركزوالهامش كنسق اجتماعي في الرّواية:

6-1- ثنائية السيّد والعبد:

رغم أنّه الزّمن زمن جدبٍ، وقد شحت السماء وحاصر الموت، فمع الموت تتساوى الذوات، إلاّ أنّ ظاهرة السيّد والعبد واللذان يمثلان المركز والهامش لا تزال تسيّر حياة سكان الساحل الصحراوي، يقول السارد "**اتخذنا (أبزرقو) طبيخا، وهو قديد لحوم المواشي الضائعة الصائرة إلى الموت؛ لكن صكّتها الأخيرة أشّرت جواز حلالها، بيد أنّ عامة أهل بوادينا كانوا يتندرون بمن يقترب إليها أكلا ولو همسا، يرمونها في حفر الجيّف أو تعطى لأوباش القوم كالخدم والعبيد**"(حاج أحمد، 2021، ص.16)، فالصورة المستترة بين سطور هذه العبارة توحي بأنّ الخدم والعبيد ما هو إلاّ نسق من أنساق الهامش في ذلك المجتمع الموصوف، فهذه الفكرة لا تكاد تبرح حياة الإنسان مهما كان مستوى معيشته وظروفه الاقتصادية، فالكلّ سواسية أمام جدب الأرض وحتمية الموت الذي يطاردهم، لكنّها سنة البشر فيما بينهم، ففي أحلك الظروف لا يتخلّون عن ثنائية السيّد والعبد وهنا تحضرنا قصة أبا جهل عندما مرّ به "**معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رفق ثمّ مرّ به ابن مسعود وقد أمر رسول الله ﷺ أن يلتمس في القتلى فوجده بآخر رفقٍ، فقال: فوضعت رجلي على عنقه ثمّ قلت: هل أجزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أجزاني؟ أعمد من رجل قتلتموه، أخبرني لمن الدائرة؟ قلت: لله ولرسوله، فقال له أبو جهل: لقد ارتقيت - ياروعي الغنم - مرتقى صعبا! ما أنت بأول عبد قتل سيّده، أما إن أشدّ شيء لقيته اليوم قتلك إياي**"(ابن الأثير، 1997، ص.21).

إنّ اختلاف الأعراف والعادات والتقاليد بين الشعوب والأمم وحتى في الوطن الواحد، لا يستثني الصراع القائم بين المركز والهامش كنسقين ثقافيين، ولقد توطّنا في الأذهان بفعل الممارسات السلطوية والأنظمة الملكية والقبلية، فالأهالي النازحين من الصحراء من هول القيامة التي حلت بهم، وفق التصوير الذي أورده الصدّيق حاج أحمد في رواية منّا تتأكد مقولته "**النّاس من كل الأطراف الجنوبية زحفوا لتنقارة، البعض منهم جاء يتلمّس زرعا أو أرزا من الإعانات التي كان يوزعها القائد بادي ولد خمادي الكنتي، على وصاياه وأتباعه من ساكنة تيلمسي**"(حاج أحمد، 2021، ص.32) فثقافة التابع والمتبوع رسختها قوة المكاسب والتملّك فكون السيد بادي هو من لديه زمام الأمور في توزيع المؤونة مكّنه الوضع من أن يكون مركز سيادة وقيادة، بيد أن من لجؤوا إليه صاروا هامشا لعل حاجتهم إلى إسكات جوع بطونهم هو من أفقدهم ما تبوأه القائد بادي، فالعلاقة في هذا الموقف السردي تظهر جانبا من الاتفاق الضمني كون المسألة مسألة تكافل وتظافر قبلي بين الحاكم والمحكوم.

6-2- ثنائية الأبيض والأسود:

إنّ مركب النقص في البشر تحدّد كفكرة استهامية فرضتها قوة مركزية نسبت إلى نفسها صفة الكمال وما خالفها ينظر إليه بعين الاستصغار والاحتقار، فاستعمار الرجل ذو البشرة البيضاء واستغلاله لثروات وجهد الرجل ذو البشرة السمراء، أسس في مخيال هذا الأخير فارق اللّون، وصوّر في ذاته فوقية اللون الأبيض على اللون الأسمر، فصار في المفهوم الجمعي البياض دلالة على الصفاء والنقاء والجمال، في حين انصبغ لون السمرة كمفهوم للشؤم والقبح والأعمال الشّاقة والعنف والعنصرية، وهذا ما يراه السّارد في مشهد **"ليفاميست من مشعوذي قبائل الصّنغاي المرابطة بـ(غاو)، التي لم تجرؤ على الرحيل، بسبب بشرتها السوداء، وانقطاع علاقاتها التّاريخية أو توهمها مع الجارة النوفمبرية"** (حاج أحمد، 2021، ص.17)، فالرافضون الهجرة إلى الأراضي الجزائرية ومرابطتهم وبقائهم في منطقة غاو رغم معاناتهم المريرة مع الجفاف والموت، ما سببه إلاّ عقدة نفسية استوطنت في الأذهان وتأصلت كمفهوم للتميّز العنصري سواء من قبل الآنا أو الآخر والعكس صحيح.

لو عجنا في العصور السابقة للأمم والشّعوب لألفينا أنّ ظاهرتي السيّد والعبد والأبيض والأسود تأسستا من قبيل التّفرقة والتميّز والتمركز والتهميش، فرغم أنّه مرّ ما يربو عن 14 قرنا من محاربة الإسلام لهذه الثنائية إلاّ أنّ آثارها بقيت متجذّرة في عرف المجتمعات اللاحقة.

7- الميراث الكولونيالي وما بعده في الرّواية:

نجد أن الاستعمار خلف آثارا فكرية هدامة بقيت ملامحها إلى ما بعده، يتجلى ذلك في معاناة الشعوب وتخلفها وتخبطها في الثالوث الفتاك الفقر والجهل والمرض رغم تحرّرها من سطوته، فما من مكان حلّ به الغازي إلاّ وسطى على خيراته دون تقديم لساكنته أي خدمة أو منفعة تذكر، فهو يخرّب لا يعمّر، يسلب ولا يمّد، فالتّاريخ خير شاهد على ذلك، ولعلّ قبيلة (أولمدن) التارقية **" وهي قبيلة ذائعة الصيت بالصحراء، كانت لها سلطنة قوية، تسمى (إموشاغ)، حكموا في سالف عهدهم الصحراء من (زندر) بالنيجر.. حتى (خوبة رأس الماء) غربا"**(حاج أحمد، 2021، ص.39)، أي من شرق النيجر إلى غرب موريتانيا، فهذه القبيلة كانت شوكتها قوية، سلطان وامتداد جغرافي ساشع، لكن بعد التوسعات التي قام بها الغرب في إفريقيا تم إضعافها وزرع الفرقة بين عشائرها، استغلت ثرواتهم بسواعدهم، وبقيت الذهنية الكولونيالية عالقة في مخيال شعوب القارة حتى بعد استقلالهم وتحرّرهم، فواقع حياتهم الجديدة مطابق لما عاشوه إبان الكولونيالية، رحل الاستعمار لكنّه خلّف الأفكار، **"فالصراع على إفريقيا في القرن العشرين مثلا، هو صراع على أقاليم قام بتصميمها وإعادة تصميمها لأجيال عديدة مستكشفون من أوروبا""**(سعيد، 2014، ص.268)، نقصد فكرة التفرقة وتقسيم الهيكل الكبير إلى جزيئات، تلك السياسة التي استطاع السيطرة بها عليهم، كما فعل مع العرب، ففكرة التفرقة لم تمّح آثارها، فهذه القبائل الصحراوية لا تزال مقسّمة مشتّتة بين عدّة دول تعاني من ظروف حياتية بائسة ويائسة.

يقول الرّوائي في أحد مقاطع رواية منّا **"انقسمت إلى أربع هجرات الأولى نحو موريتانيا والنيجروبوركينا فاسو، الثانية؛ نحو الجزائر، الثالثة؛ صوب ليبيا، الرابعة؛ باتجاه بلاد الحجاز"**(حاج أحمد، 2021، ص.32)، ربما كانت هذه البلدان المتعدّدة في زمن ما إقليما أو إقليمين، فجاء الاستعمار فقام بإعادة هيكلة خارطتها فجزّءها أو فتّتها إلى طائفة من الدول بسياسة فرق تسد، حتى يسهل عليه تملكها والتحكم في مقوماتها أثناء الاحتلال، وإذ ما غادرها (بعد الكولونيالية) يستفيد من تمزق كيانها وفي ذلك يجد سهولة في استغلال خيراتها والتحكّم في القائمين عليها، وفي هذه الفكرة الاستعمارية شتّتت مركزية التوارق وأضعفتهم أيما إضعاف فبمجرد جفاف سنة أو سنتين لاحظنا انهيار نسيج مجتمع موغل في كينونته التّاريخية، فجعلتهم بلا وطن كونهم بدو رحل بعدما كانوا ينعمون بحرية التنقل والترحال في مستوطناتهم الشاسعة، وربما كانوا قديما إذا حل بهم القحط تكاثفوا وتضامنوا لأنّه لا توجد حدود تفرق بينهم، أما وقد فعل الاستعمار فعلته فقد ضيّق عليهم واسعا.

8- صراع الأنا والآخر كظاهرة ثقافية في رواية منّا:

8-1- الأنا والآخر من منظور ثنائية القوة والضعف:

صراع الذات مع الآخر جدلية أخرى لإثبات الكينونة والوجود، تجسدت في رواية منّا من خلال تشبث رجل الصحراء وتحديه لبيئته رغم صعوبة التأقلم فيها، حوارية الحياة والموت كن أو لا تكن، وهو ما أفصح عنه الروائي حينما قال **"لقد تواتر في ترانيم قوافل الصحراء، سرد مناقب شجاعة التوارق بلا بهتان وقص بطولات العرب الجيران بلا إذعان"**(حاج أحمد، 2021، ص.25)، فالرجل التارقي وكأنّه طوع سبل عيشه وفق الظروف القاسية والقاهرة التي تحيط به، الأمر الذي أكسبه خصالا لا يطعن في صحتها جاحد كالشجاعة والمقاومة والصّبر، ويظهر ذلك في مقاومتهم للعرب زمنا طويلا، فلم يتخلوا عن مراتعهم أمام غزوات العرب لأراضيهم بل قاوموهم، أما الآخر الآخر الذي أرغمهم على مبارحتها هو الحدث الجلل ونقصد به الجفاف والمجاعة.

8-2- الأنا والآخر بين المكانة المستعلية والمرتبة الدّونية:

وكما هو معلوم أنّ الذّات أنانية فهي تركن إلى أناها أكثر من غيرها، حتى في أصعب الظروف نجدها لا تتنازل عن مركزيتها، فرؤية الآخر من وجهة عقائدية مثلا **"كانت تقوم على أسس دينية وقيمية، فالدين هو الذي يمنح المعنى للأشياء وللظواهر وللبشر"**(بعلي، 2011، ص.234)، فصراع الأنا والآخر لا يستثني حتى المفاخرة بالمعتقد والدين، وهو ما عبّر عنه بادي ولد خمادي أحد شخوص الرّواية حينما قال **"صحيح أنّ جيراننا العرب، مكلّبون على الدنيا؛ لكن قد تجد فينا - نحن التوارق - من تمشيخ وأخذ الأوراد بالمصاهرة والخؤولة، فاستملح المذهب"**(حاج أحمد، 2021، ص.ص.49-50)، يرى ساكنة الصحراء -لا سيما التوارق- في أنفسهم أنّهم أهل دين وتقى وورع وتمشيّخ وأخذ العلم إما مصاهرة أو من أخوالهم، بيد أنّ جيرانهم العرب فيصفونهم بأنّهم مكلبون على الدنيا وملذاتها، وهنا يظهر صراع الأنا الملتزم المقتصد المهتم بأمور دينه، والآخر المستهتر بتعاليم الدين، الغارق في شهوات الدنيا والفاني عمره في جمع الأموال والتمتّع بالملذات، فرغم أنّ العرب هم من سوف يقدمون لهم يد العون وينجدونهم من هذه المصيبة أو المحنة، إلاّ أنّ أناهم العميق يحاول أن يصوّر لهم شيئا من التفوّق، وكأنّ حال لسانهم يقول رغم أنّكم تطعموننا إلاّ أنّنا أفضل منكم من وجهة دينية.

8-3- جدلية الجزاء مقابل العطاء بين الأنا والآخر:

أدت سنة الجفاف والقحط إلى إضعاف سلطان القبائل الأزوادية؛ مما أدى إلى تشتت أفرادها بين دول يقع بإقليمها الجغرافي الساحل الصحراوي الإفريقي، والتي رسم الاستعمار معالمها الحدودية كالجزائر وموريتانيا وتشاد وليبيا، وعلى إثر نشوب حرب بين الجارتين ليبيا وتشاد مثلما أشار إليه السّارد في روايته على لسان أحد شخوصها، حينما استطرق قائلا **"جاءت سنة 1987، وقامت أكبر حرب ليبية تشادية حول منطقة (أوزو) أو كما ينطقها أهل أزوادنا، (بان داوزو)، فنودي علينا بمعسكر 2 مارس، سمعنا كلاما رطبا جازما؛ إن أبلينا البلاء الحسن في هذه الحرب، فإنّ القذّافي سيجزينا الجزاء الأوفى"**(حاج أحمد، 2021، ص.272)، لكن ما فتئ أن يتحول ذلك الكلام المعسول إلى صدمة، لأنّ الأزواديون الذين فروا إلى ليبيا بحثا عن العمل والمال وجدوا أنفسهم متورطين في حرب دامية من خلال انخراطهم في صفوف الجيش الليبي ضد القوات التشادية على منطقة متنازع حولها بين الطرفين، وما أرغمهم على ذلك هي تلك الوعود التي تلقوها من السلطات الليبية؛ أي مساعدة الدولة الليبية في الاستلاء على منطقة أوزو مقابل مساندتهم لإنشاء وطن أزوادي بالصحراء العربية الوسطى، إنّها معادلة سياسية في ميزان شرط، منطقها الجزاء مقابل الخدمة، تَحَمُّلْ العذاب والألم لتحقيق المبتغى والأمل، فالأزوادي وقع بين خيارين أحلهما مرّ؛ إمّا الموت في مراتعه بجوع البطن أو الموت بالرصاص لإقامة وطن، وهنا تبرز ثنائية الأنا الليبي مقابل الآخر الأزوادي القائمة في ظاهرها على الخدمة المتبادلة وفي باطنها نزوع الأول إلى أناه الطامعة إلى تملّك قطعة الأرض باستغلال سواعد الثاني الذي قهره الجوع ونخره المرض.

9- خاتمة:

بعد هذه الرّحلة الثّقافية في غضون رواية منّا قيامة شتات الصحراء، خرجنا بطائفة من النتائج لعل أهمها:

- أنّ مقولات النّقد الثّقافي ترتكز على مضمرات النّص الضدّية المتصارعة في انسيابية واتساق والمختبئة تحت عباءة الجمالي كالمركز والهامش، الأنا والآخر، شمال جنوب وغيرها من الأنساق.
- النقد الثقافي يتوكأ على تعاضد مجموعة من المعطيات أو المفاهيم ذات الصلة بحياة الإنسان ونشاطاته يساهم في تطوير الإنتاج الأدبي والمضي به نحو الأفضل، مسايرة لمقتضيات العصر وديناميةصيرورة الحياة.
- الأنساق الثّقافية تسعى لكشف الخطابات المهمّشة بين سطور الكتابة لفضح المسكوت عنه والمقطوع وتعريتهما.
- عالج الصدّيق حاج أحمد قضية مختلفة الأبعاد اجتماعية وسياسية واقتصادية عميقة، تجلت في قوم تعايشوا مع بؤس وشقاء الساحل الصحراوي الإفريقي من كل المناحي، تضاريس جغرافية جد صعبة، تصحر وجفاف، وظروف معيشية قاهرة، مجاعة وتخلف، فمناطق استقرارهم وترحالهم مناطق عتمة لا ظل.
- حوى هذا المتن الرّوائي على العديد من الأنساق الثّقافية المضمرة والمصرّح بها حاول الرّوائي لفت انتباه القارئ لها.
- صوّرت الرّواية الصراع الثّقافي بكل تجلياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأديولوجية من خلال نسيج أدبي راق وصناعة سردية محكمة.
- استطاع الكاتب أن يصوّر حياة سكان الساحل الصحراوي خاصة التوارق ورحلتهم المضنية هربا من الموت الذي سبّبه الجفاف وشح السماء، بطريقة فنّية تخييلية امتزج فيها الواقع بالخيال والاستهامي بالحقيقي.
- لغة الرّواية كانت واصفة لمشهد مهول عبّر عنه الرّاوي بالمحرقة جراء ما خلفه الجفاف من هلاك في الإنسان والضرع والزرع، فكانت تتحرك وفق الانفعالات النفسية للشخوص بين الرّقة والشّفقة، وبين وضوح مشهد الأزمة وغموض مستقبل تلك الأمّة.
- وظّف السّارد في روايته أنساقا تعبيرية خاصة بأهل الصحراء دون غيرهم كاللهجة ونوعية الطعام واللّباس والأدوات المستعملة، للدلالة على تقاليد وعادات ذلك المجتمع معتبرا إياها رموز وعناصر تشكيل كيانه وهويته.

10- المصادروالمراجع:

1) إدوارد سعيد، (2014)، الثّقافة والإمبريالية، دار آداب للنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط.4.
2) أنطوان برونيه وجون بول جيشار، (2016)، التوجه الصيني نحو الهيمنة العالمية الامبريالية الاقتصادية، تر.عادل عبد العزيز أحمد، المركز القومي للترجمة، ، مصر، ط.1.
3) بيل أسكروفتوجاريثجريفيث وهيلين تيفين،(2010) دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، تر.أحمد الروبي و أيمن حلمي وعاطف عثمان، المركز القومي للترجمة سوريا، ، ط.1.
4) جان بول سارتر، الوجود والعدم(1966)، بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، تر.عبد الرحمان بدوي، منشورات دار الأدب بيروت، لبنان، ، ط.1.
5) جميل حمداوي،(2022)مناهج النّقد الأدبي البنية والأسلوب، سلسلة دراسات أكاديمية محكمة تصدر عن المركز المتوسطي للدراسات والأبحاثالناظور/ طنجة، المملكة الغربية، ، ط.1.
6) جيروم كيغان، (2014)، الثقافات الثلاث العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانيات في القرن الحادي والعشرين، تر.صديق محمد جوهر،عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت.
7) حسين العودات، (2014)، صورة العرب لدى الآخر في ضوء العلاقات التّاريخية، دار الساقي بيروت، لبنان، ط.1.
8) حفناوي رشيد بعلي، (2011)، مسارات النّقد ومدارات ما بعد الحداثة، دروب للنشر والتوزيع، عمان، ط.1.
9) خالد سلمان، (2004)، في أدب ونقد ما بعد الكولونيالية، مجلّة علامات في النّقد، السعودية، ج54، م14، ديسمبر.
10) رفاعة رافع الطهطاوي، (2012)، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة القاهرة، مصر.
11) صالح هويدا ، (2015)، الهامش الاجتماعي في الأدب، قراءة سوسوثقافية، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، مصر، ط.1.
12) الصدّيق حاج أحمد، (2021)، منّا قيامة شتات الصحراء (رواية)، الدواية للنشر والتوزيع والطبع، الجزائر.
13) عبد المحسن بن أحمد براك العصيمي، (2013)، مختصر مقدمة ابن خلدون، قرطبة للنشر والتوزيع الرياض، السعودية، ط.2.
14) عز الدّين ابن الأثير، (1997)، الكامل في التّاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان، ط.1، ج.2.

15) عزت السيد أحمد، (1993)، النظام الاقتصادي العالمي الجديد من حرب الأعصاب إلى حرب الاقتصاد، توزيع مكتبة دار الفتح، مصر، ط.1.
16) علي الوردي، (1994)، أسطورة الأدب الرفيع، دار كوفان للنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط.2.
17) فرانكاسينو بولي، (2007)، الأدب الأوروبي من منظور الآخر، تر. مجدي يوسف وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، مصر، ، ط.1.
18) ماجدة حمود، (2013)، إشكالية الأنا والأخر نماذج روائية عربية، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت.
19) محمد علي الشهرستاني، (1994)، الحضارة الإنسانية بين التطور الديني والنظريات الوضعية، ج1، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية قسم الدراسات والبحوث العلمية، مكتبة مؤمن قريش، ط1، سنة.
20) موريس دوغرجيه، (د. ت.)، مدخل إلى علم السياسة، تر. جمال الأتاسي وسامي الدروبي، دار دمشق للطباعة والنشر، سوريا،
21) نايجل سي. غبسون، (2013)، قانون المخيلة بعد الكولونيالية، تر: خالد عايد أبو هديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، دار النشر بيروت، لبنان، ط.1.